مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية

المجلد11 / العدد: 02 (2021)، ص 814-827

النص المقدس في فكر محمد أركون بين الخلفية الدوغمائية والانفتاح الابستيمي

The Sacred Text in Muhammad Arkoun's Thought Between Dogmatic Background and Epistemological Opening

عيادي عبد المالك[1]*. شريف رضا[2]

[1] جامعة الجزائر 2، ayadiabdelmalek77@gmail.com

[2] جامعة الجزائر 2، Rida.cherif65@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/03/01 تاريخ القبول: 2021/02/13 تاريخ النشر: 2021/12/28

الملخص:

يسعى هذا المقال للكشف عن حقيقة النص المقدس كما تصوره أركون من خلال محاولة تخليصه من الإيديولوجيات التقديسية التي غلفته بطبقات كلسية سميكة تحول بيننا وبين الوصول إلى طبيعته الأصلية، في ذلك يستند أركون لمجموعة من المناهج العلمية المعاصرة في إطار الانفتاح الابستيمي قصد الوقوف على الطبيعة الإنسية النسبية التاريخية لهذا النص وهو ما كان موضوع هذا البحث، لكن قبل هذه المقاربة التحليلية التي عرضنا فيها الطابع الإنسي النسبي للنص المقدس باعتباره نصا مفتوحا على الإنسان عرضنا المقاربة المفاهيمية التي استجلينا فيها بعض المفاهيم التي يقوم عليها هذا البحث كما وظفها أركون، وتخلصنا إلى الكشف عن الأسيجة الدوغمائية التي تحيط بالنص المقدس سواء في البيئة الإسلامية عن طريق رجال الفقه التقليدي أو في البيئة الغربية عن طريق المستشرقين.

كلمات مفتاحية: المقدس، الدوغمائية، الاستشراق،الابستيمي، الأنسنة، النسبية، المطلق .

Abstract :

This article seeks to reveal the truth of the sacred text as conceived by Arkoun by attempting to rid it of the sacred ideologies that enveloped it with thick calcareous layers that prevent us from reaching its original nature.Arcon uses a set of contemporary scientific methods within the framework of epistemological openness in order to stand on human nature. Before this analytical approach, in which we presented the relative medial nature of

* المؤلف المرسل: عيادي عبد المالك ، الإيميل: ayadiabdelmalek77@gmail.com

the sacred text as an open text to man, we presented the conceptual approach in which we have recorded some of the concepts as employed by Arkoun, and deliver us to reveal dogmatism fences that surround the sacred text.

Keywords: Absolute – Dogmatism – Epistemology – Humanization – Orientalism – Relativity - Sacred.

Résumé:

Cet article cherche à révéler la vérité du texte sacré tel qu'Arkoun l'envisageait en essayant de le débarrasser des idéologies sacrées qui l'enveloppaient d'épaisses couches de calcaire qui nous empêchaient d'atteindre sa nature originelle, en ce qu'Arkoun s'appuie sur un ensemble d'approches scientifiques contemporaines dans le cadre de l'ouverture épistémique pour se tenir sur la nature humaine relative La nature historique de ce texte, qui a fait l'objet de cette recherche, mais avant cette approche analytique dans laquelle nous avons présenté la nature humaine relative du texte sacré comme un texte ouvert sur l'être humain, nous avons présenté l'approche conceptuelle dans laquelle nous avons exploré certains des concepts qui sous-tendent cette La recherche employée par Arkoun, et nous avons conclu à découvrir les clôtures dogmatiques qui entourent le texte sacré, que ce soit dans l'environnement Islamique à travers des hommes de jurisprudence traditionnelle ou dans l'environnement occidental à travers des orientalistes.

Mots-clés: Absolu - Dogmatisme - Epistémologie - Humanisation - Orientalisme - Relativité - Sacré.

المؤلف المرسل: عيادي عبد المالك،.Ayadiabdelmalek77@gmail.com

1. مقدمة:

يعد المقدس من المفاهيم المركزية التي شكلت حضورا مكثفا في محور الفعل التفكيري الفلسفي المعاصر ضمن جملة السجالات الكبرى داخل المجتمعات الغربية منها والعربية والإسلامية، فالحديث عن المقدس بمختلف ضروبه قرآنا، توراة، إنجيل.. استرد حضوره في المشاريع الفلسفية الكبرى وبالخصوص في الفكر العربي المعاصر، فنصر حامد أبو زيد، وحسن حنفي، وطه عبد الرحمان، ومحمد شحرور، ومالك شبل وغيرهم يمكن تصنيفهم ضمن هذه الدائرة التي راهنت على حتمية العودة إلى النص والاشتغال عليه بوسائل الفكر المعاصر.

وفي السياق نفسه، يشكل المقدس في الدرس الأركوني أولوية فكرية ورهانا معرفيا استلهمه أركون من احتكاكه بفلاسفة الحداثة وما بعد الحداثة الأوربية أملا في ذلك تخليص النص الديني من القراءات المنغلقة على ذاتها وبالتالي إيجاد البديل المنهجي القائم على الانفتاح والتحرر الذي من شأنه أن يسهم في إكساب النص الديني آليات جريئة تستعيد له شروط الفهم العلمي والموضوعي لمختلف القضايا التي تحدث فيها هذا النص، ولأن القراءة الأركونية للنص المقدس عرفت جرأة زائدة، وممارسة متميزة في الخطاب العربي الحديث والمعاصر بالنظر إلى العمق البحثي الذي تميز به المنحى الأركوني فإن خطابه الذي تضمنته مؤلفاته المركزية منها والشارحة في إطار المقالات المختلفة شكلت اهتماما متزايدا في مختلف الدوائر المعرفية الغربية منها والعربية، وهذا ما أبانت عنه مختلف القراءات النقدية لمشروعه الفكري المتميز.

هكذا يقودنا الحديث عن النص المقدس في الفكر الأركوني إلى طرح الإشكالية التالية: كيف ينظر أركون للنص المقدس ضمن إرهاصات الدوغمائية والمعطيات الابستيمية المعاصرة؟ وعن هذه الإشكالية تتفرع جملة الأسئلة الملحة من قبيل، ما النص المقدس عند أركون؟ ولماذا الحديث عن المقدس؟ وما هي الآلية أو الآليات التي استعان بها أركون وهو بصدد إثارة هذا الطرح؟ كيف تعامل أركون مع إشكالية الفهم الدوغمائي والطرح الابستيمي في سياق النص المقدس؟

2. أهداف الدراسة:

قبل مقاربة هذه الإشكالية ومحاولة الإجابة عن الأسئلة الفرعية الناجمة عنها نقف عند أهداف هذه الدراسة والمنهجية المتبعة في ذلك لنحاول تحديدها كالتالي:

- محاولة استجلاء الغموض القائم في التحديد الأركوني للمفاهيم الفلسفية التي هي محل الدراسة هنا كالمقدس والابستمى والدوغمائية... وغيرها من المفاهيم الأخرى.
- توضيح موقف أركون من الإشكالات القائمة بين واقع المقدس في البيئة العربية الإسلامية والمأمول الذي يريد الوصول إليه.
- محاولة وضع الدين الإسلامي في سياقاته الكونية والنظر إليه ليس بمعزل عن الثقافة الإنسانية.
- تصحيح النظرة المزيفة للإسلام كما يرى ذلك أركون والتي قدمتها الدراسات الاستشراقية من جهة وعلماء الفقه التقليدي في البيئة الإسلامية من جهة أخرى.
- ربط الدراسات الإسلامية بالمناهج العلمية الحديثة ومحاولة قراءة الإسلام على ضوء هذه المناهج.
- محاربة التعصب وكل أشكال الدوغمائية وفي المقابل التفتح على العلم والمعرفة العلمية.
- إحياء النزعة الإنسانية التي يزخر بها الدين الإسلامي الحنيف وهو عكس ما تظهره الكثير من الدراسات التاريخية.

أما بخصوص المنهج المتبع في الدراسة فهو تحليلي مقارن يعمل على تفكيك النصوص ومقارنتها، وكذا مقاربتها في إطار الأشكلة المطروحة في المقدمة.

من أجل تحقيق هذه الأهداف نعمل على مقاربة هذه التساؤلات المتلاحقة التي تحاول هذه الورقة البحثية أن تتفاعل معها وتقارب من خلالها التصور الذي ظل أركون يدافع عنه باسم مناهج الأنسنة التي أبان عليها الفكر الغربي المعاصر، وحتى يتسنى لنا وضع هذه الرؤية التحليلية في إطارها المنهجي السليم نرى من الضروري استحضار الأدوات المفاهيمية التي من شأنها أن تسعفنا على استيعاب القراءة التي قدمها أركون في هذا السياق.

3. المقاربة المفاهيمية:

نتوقف في هذا الصدد عند جملة من المفاهيم المفصلية التي تأسس عليها الدرس الأركوني وهو بصدد الاشتغال على فكرة المقدس، ومن جملة هذه المفاهيم: مفهوم العقل الديني، والعقل الإسلامي، والمقدس وغيرها من المفاهيم.

3. 1 العقل الديني:

هذا المصطلح يأخذ فهما خاصا في المعجم الأركوني وهو يعتبره عقلا يشتغل بشكل مختلف عن العقل بالمفهوم العام الذي وظيفته التفكير وبالتالي يصبح العقل الديني عقلا يعمل داخل دائرة المعرفة الجاهزة ويستخرج معارفه استنادا "إلى العبارات النصية للكتابات المقدسة (قرآن، وأناجيل، وتوراة) فالعقل الديني بطبيعته عقل تابع لا مستقل"(أركون، 2008، ص45) ، وعليه فكل معرفة منتجة من طرف هذا العقل هي معرفة محددة سلفا ومؤطرة ضمن نطاق معين أملته النصوص المقدسة، لذلك يعتبر أركون أن العقل الديني "يقبع تحت كل أشكال التراث أو يقف وراءها وفي الوقت نفسه يمثل نتيجتها أو محصلتها والحقيقة بالنسبة إلى هذا العقل هي واحدة لا تتجزأ ولا يمكن ردها إلى شيء آخر أو إلى أية حقيقة أخرى"(المصدر نفسه، ص49).

في هذا المنحى التنظيري لمفهومية العقل الديني يتسنى القول أن كل معرفة مستنبطة من النص الديني تتم في النهاية وفق منهجية فقهية خاصة بهذا العقل أو حتى لا نقول فقهية نقول لاهوتية حتى يتوزع المفهوم على مختلف النصوص الدينية ولا يرتبط المفهوم بالنص القرآني فحسب لأن أركون يعتقد أن اللاهوتيون كلهم يخلعون صفة القداسة والتقديس على النصوص وهذه ميزة أساسية من مميزات العقل الديني الذي أراد أن ينصب نفسه على كل أشكال التفكير، "ومن هنا جاء تقديس القانون الإسلامي، واعتباره فوق البشر والتاريخ"(المصدر نفسه، ص47).

هذه الخصوصية التي نذكر تجعل من مقاربة العقل الديني لأي مفهوم أو موضوع آخر هي مقاربة أحادية الجانب لأن العقل الديني في نهاية المطاف يعتقد في ذاته صفة الحقيقة المكتملة والمنتهية، وهذا الذي جعل هذا العقل يستبعد كل أشكال المراجعة والمساءلة والنقد الحر، وهو ما يحاول أركون في

سياق بحثه تتبعه نقديا وفق مناهج وآليات بحث معاصرة فيلولوجية وتأويلية وبنيوية وغيرها، فصار المقدس عند أركون في مرتبة المؤنسن مهما اختلفت المصدرية وطبيعة السلطة التي أنتجت النص، وبطبيعة الحال يكون أركون قد استند في إطار هذا التحليل وتكوين هذه المقاربة إلى مفهوم العقل الحداثي وما بعد الحداثي الذي يختلف عن العقل السالف الذكر، "كون العقل الحداثي التنويري يسمح لذاته بأن تحتج أو تلغي أو تنقد أو تراجع نفسها بكل حرية وهذا ما يستجيب حتما إلى الدرس الابستمولوجي الذي يؤسس لفعل المراجعة والمساءلة المستمرة، وهذا هو الفرق الجوهري بين الموقف الفلسفي والموقف الديني"(المصدر نفسه، ص46)، فالعقل الفلسفي الذي ينتصر له أركون هو عقل مرن غير متحجر من خصائصه المراجعة الذاتية المستمرة فهو عقل يستمع لذاته ولا يسمح لنفسه بإطلاق أحكام مطلقة غير مبررة عكس العقل الديني الذي هو عقل سريع الحكم أو كما يشير إلى ذلك أركون "فالمؤمنون التقليديون حساسون جدا، ويشعرون فورا بأنه قد أعتدي عليهم وبالتالي يقومون برد فعل فوري عن طريق الهجوم"(أركون، 1996، ص121).

بهذا التصور الذي يرسمه أركون يكون الاشتغال على العقل الإسلامي بدلا عن العقل العربي حتمية منهجية وجب الانتباه إليها، وعلى أساسها تم التطرق إلى القضايا الأساسية التي تناولها هذا العقل ومنها فكرة المقدس.

3. 2 في مفهوم العقل الإسلامي:

قبل الحديث عن مفهومية هذا المصطلح وجب منهجيا أن نشير إلى أن الاختيار الأركوني للعقل الإسلامي بدلا عن العقل العربي له مبرراته، ففي تصوره "العقل الإسلامي يتقيد بالوحي أو المعطى المنزل، ويقر أن المعطى هو الأول لأنه إلهي"(المصدر نفسه، ص142).

هذه الصفة التي تميز العقل الإسلامي يمكن إسقاطها حتى على العقل المسيحي أو اليهودي فكلاهما يشتغل بنفس الصيغة التي يعرف بها العقل الإسلامي، فدراسة العقل الإسلامي أشمل في نظر أركون من دراسة العقل العربي حتى لا يرتبط الحديث باللغة وحدودها فقط يرتبط بدلا عن ذلك بكل ما له علاقة بالإسلام مهما تعددت الألسن واللغات التي هي في دائرة الإسلام، من هنا نفهم بأن أركون وهو يشتغل على العقل الإسلامي يهدف إلى الإمساك بالظاهرة الدينية في عموميتها الشاملة التي تتجاوز من حيث الاتساع الدائرة اللغوية والقومية الواحدة سواء كانت عربية "أم تركية أم إيرانية أم باكستانية أم غير ذلك"(أركون، 2008، ص36)، وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى الاختلاف بين الطرح الأركوني والطرح الذي تناوله المفكر المغربي محمد عابد الجابري الذي ظل يتتبع قضايا العقل العربي بدلا عن الاشتغال بالعقل الإسلامي، الذي يراه اشتغالا لاهوتيا يحتاج إلى فهم كل الخصوصيات الثقافية واللغوية التي تشكل الإنسان المنتمي إلى الدائرة الإسلامية، ومهما اختلفت وجهات النظر بين الطرفين

فإن وجهة نظر محمد أركون لها ما يبررها بالنظر إلى نوع القضايا التي أثارها وبالخصوص فكرة المقدس.

هذا ويشير صاحب الإسلاميات التطبيقية وهو بصدد الحديث عن دلالة العقل الإسلامي إلى أن كلمة (عقل) غير موجودة في القرآن الكريم وإنما وردت مشتقاتها من خلال جمل استفهامية مثل أفلا يعقلون؟ أو صم بكم عمي فهم لا يعقلون، وقد أكد أركون أن للعقل مكانة خاصة في النص القرآني ولا مثيل لها في النصوص الإسلامية التي جاءت بعده يقصد نصوص الأحاديث وكتب الفقهاء وعلماء الكلام... الخ، فحضور مفهومية العقل في القرآن الكريم لا تختلف عن تلك الصياغات التي وردت في الكتب المقدسة السابقة الأناجيل والتوراة، بمعنى أن مفهوم العقل في القرآن لا ينفل عن ذلك المفهوم الذي ورد في غيره من النصوص المقدسة السابقة إبداعا ومجازا، أو كما يقول أركون في هذا النص: "مفهوم العقل في القرآن لا ينفصل عن الحساسية والخيال والشعور الذي نجده في الكتب المقدسة السابقة عنه"(أركون، 2004، ص283)، ولكن مع كل هذا يرى أركون أن العقل الإسلامي خاص بالإسلام كدين فهو يعمل على فهم ما جاء به النص المقدس من أوامر ونواهي ومختلف التشريعات، وقد أخذ المسلمون مفهوما عن العقل وطبيعة عمله انطلاقا من الحديث النبوي الذي جاء فيه ما نصه: "إن الله تعالى لما خلق العقل قال له قم فقام ثم قال له أقعد فقعد، ثم قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر إلى أن قال له: وعزتي وجلالي وعظمتي وسلطاني وارتفاع مكانتي واستوائي على عرشي وقدري على خلقي ما خلقت خلقا هو أكرم علي منك ولا أحسن عندي منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أعرف وبك أعبد وبك أثيب وبك أعاقب"(أركون، 1996، ص83).

على مقصودية هذا النص النبوي الذي يستأنس له الفقهاء، ورجال الدين المسلمين بمختلف مسمياتهم يعتقد أركون أن العقل الإسلامي يخضع لتحديدات ومقتضيات الوحي باعتباره كلام الله، وبهذه الصفة التي تحمل طابع القداسة صار العقل الإسلامي يفكر في مختلف المسائل بكيفية محددة مصدريتها الوحي باعتباره مقدسا، وعلى هذا الأساس والمعنى المحدد سلفا أصبح يفهم العقل الإسلامي، وهذا في حقيقة الأمر فهم غير علمي وغير موضوعي بل هو تصور إيديولوجي وتكريس لسلطة معنوية مكبلة للنشاط العلمي الذي يفترض أن يكون عليه العقل الإسلامي، لذا وجب مراجعة مثل هذه العوائق المحيطة به حتى يرتقي هذا العقل إلى مصاف العقل الاستطلاعي المبدع.

3. 3 في مفهوم المقدس:

إن الجذر اللغوي لكلمة المقدس في اللغة العربية والمفهوم الإسلامي لها يأتيان بمعان متعددة منها التنزيه والطهارة والتعظيم والحرمة، وقد ورد هذا الجذر ومفرداته في النص القرآني، فالله عز وجل وصف بالقدوس في قوله تعالى في سورة الحشر: "هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون" الآية 23، كما وصف جبريل عليه السلام

بروح القدس في قوله تعالى: "قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين" الآية 102 سورة النحل، وجاء اللفظ في سورة المائدة وصفا للأرض في قوله تعالى: "يا قومي ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين" الآية 23 سورة المائدة.

ووردت مفردات المقدس كالحرام على سبيل المثال وصفا للمكان مثل البيت أو المسجد في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا وإذ حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام" الآية 3 سورة المائدة، والذي يستفاد من خلال هذه الصورة التي ورد بها مفهوم المقدس في القرآن الكريم أن المقدس في الإسلام حاضر في الذوات والزمان والمكان، لكنه حضور مستقل عن قداسة الله لذا لا يمكن القول أن المقدسات في الإسلام حازت هذه المكانة من خلال الروح، فالمقدسات في الإسلام تحمل طابعا روحيا مثل قدسية الملائكة أو الرسل أو البقاع المقدسة، ومن أبرز المقدسات في الإسلام القرآن الكريم كتاب الله أو كلام الله الذي أنزله جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، حاملا معه هذه الصفة أي صفة القداسة، وعلى هذه الصفة التعريفية لدلالة المقدس يؤكد أركون أن القرآن هو المرجعية العليا المطلقة والمقدسة في المجتمعات الإسلامية ولم تحل محله أية مرجعية أخرى حتى الآن، فهو المقدس الذي ارتسم في ضمير المسلم ووجدانه "إن الكتاب المقدس يعتبر المرجع الأساسي للمجتمعات المتدينة فلا يمكن فصله عن هذه المجتمعات"(أركون، 2001، ص72).

هذا ويذهب أركون إلى الاعتقاد بأن النص القرآني قد ولد عشرات التفاسير والأدبيات التأويلية منذ ظهوره وحتى اليوم فشبه تراكم هذه التأويلات بتراكم الطبقات الجيولوجية للأرض فوق بعضها البعض، فلا نستطيع التوصل إلى الحدث التأسيسي الأول إلا إذا استطعنا اختراق الطبقات الجيولوجية المتراصة أي كل الأدبيات التفسيرية التي تحجبه عنا فلا نستطيع أن نراه إلا من خلالها وهذا ما يعرف بالدوغمائيات المحيطة بالنص المقدس والتي صارت عائقا من العوائق المعرفية الحائلة دون فهمه فهما صحيحا وصارما بعيدا عن سلطة القارئ أو صاحب التأويل أو التفسير خاصة وأن كل قراءة تختفي وراءها حتما إيديولوجيا معينة، وهذا ما يعترف به أركون ويسعى إلى تعريته وفق منحى ابستمولوجي من خلال جملة الأدوات الابستيمية التي استأنس بها.

4. المقاربة التحليلية:

4. 1 الثورة الابستيمية ومحاولة أنسنة المقدس:

لقد اشتغل محمد أركون منذ ثمانينات القرن العشرين على وضع آليات قراءة النص المقدس وفق منظور المنهج التاريخي موضع التنفيذ والانخراط في فضاء فكري مختلف عن البيئة الأصلية التي ينتمي

إليها ويشتغل عليها، مما أتاح له وصفا أكثر موائمة وتحررا من القيود والشروط التي تقتضيها طبيعة التفاعل مع المحيط الأصلي الذي يصب عليه فكره، وقد دعا إلى ممارسة النقد التاريخي على النص القرآني وأكد ذلك في قول ما نصه: "عملي يقوم على إخضاع القرآن لمحك النقد التاريخي المقارن"(أركون، 2001، ص82).

هذا وقد اتسم طرحه بالإخلاص العميق للنزوع العلماني الليبرالي من خلال انخراطه الكلي بالأسس المنهجية الغربية التاريخية والتفكيكية دونما مراعاة للخصوصيات المحيطة، وكذلك "من خلال متابعته للنشاط الاستشراقي الذي بنظره التعامل معه بوصفه قناة الوصل النقبية التي لا ينبغي التشكيك بجدوائيتها العلمية من جهة أخرى"(البدادي، 2018، ص،ص13،12)، فالمتأمل في المشروع الأركوني يجد بأن الإسلاميات التطبيقية لديه تأسست على موضوع رئيس وهو العقل الإسلامي في أبعاده المختلفة والمتجلية في مختلف المنعطفات التاريخية، وهو عقل شرع في التشكل منذ أن حل اللوغوس الإلهي في العقل البشري عن طريق الوحي كظاهرة ربانية، كما تأسس على الخطاب القرآني بوصفه حاملا لدلالة عقلية معينة تحوله إلى عقل عرفاني يؤمن بل يسلم بما هو روحي فوقي متعالي استجابة لقدسية النص كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

لقد سعى أركون وهو بصدد الاشتغال على المقدس النصي إلى الكشف عن بنيته وطرائق تشكله بل اتجه إلى الكشف عن مناطق اللامفكر فيه والمستحيل التفكير فيه والتي همشها هذا العقل ذاته، لأن العقل الأرثوذكسي الدغمائي كما يسميه هو عقل منغلق على ذاته ولا يسمح بعمليات التفكيك والنقد والتحليل الابستيمي لأنها تقوض بنيته وتكشف عيوبه، ومن أمثلة اللامفكر فيه موضوع خلق القرآن وتاريخية الخطاب القرآني، وتشكل الظاهرة القرآنية والتعبير الشفهي للإسلام وغيرها من المسائل التي يحاول العقل الأرثوذوكسي الدغمائي تسييجها وإخفائها حتى تظل في دائرة اللامتطرق إليه، وعليه فإن الفعل الابستيمي الذي تريده الإسلاميات التطبيقية لدى أركون الهدف منه هو العمل على إعادة ربط الظاهرة الدينية بمسارها التاريخي داخل المجتمعات الإسلامية لإضفاء الحيوية على الإسلام بوصفه دينا وتراثا فكريا بالنسبة لهذه المجتمعات الإسلامية فضلا عن هذا تحاول ابستيمية الإسلاميات التطبيقية تخليص العقل الإسلامي من المسلمات القروسيطوية التي لا يزال يعيد إنتاجها والتي تتجسد في الخلط بين البعد الأسطوري للخطاب القرآني والبعد التاريخي العقلي وفي استمرارية هيمنة التصور التيولوجي الدغمائي الذي حشد المخيال الجماهيري الإسلامي بتمثلات مغلوطة ومتصلبة من خلال تأكيده المؤدلج على أفضلية المؤمن وقوته ورفعته أمام غير المؤمن وعلى أفضلية المسلم على الكافر، وتأكيده أيضا على قداسة المعنى القرآني وفوقيته التاريخية باعتباره كلاما مجهزا ومحفوفا بقداسة إلهية خارجة عن نطاق البشر.

لقد هدف محمد أركون إلى بناء إسلاميات تطبيقية كمحاولة لتطبيق المنهجيات العلمية على النص القرآني باعتباره نصا مقدسا، ومن ضمنها تلك التي طبقت على النصوص المسيحية، وهي التي أخضعت النص الديني لمحك النقد التاريخي المقارن والتحليل الألسني التفكيكي، والحقيقة أن فكر أركون استأنس بمناهج مختلفة وهو بصدد البحث في فكرة المقدس، ومن جملة هذه المناهج التي نجدها تحضر بقوة في نسقه البحثي منهج القراءة السيميائية أو التحليل السيميائي للنصوص المقدسة، ومنهج الحفر والتعرية أو ما يعرف أيضا بمنهج التفكيك، فضلا عن التاريخانية باعتبارها منهجا يصلح لفهم الإنسان والمجتمع الإسلامي، وهذه المناهج التي ذكرنا يسعى أركون لتوظيفها لأجل غاية أساسية كما يرى هو "مواجهة الرفض العنيف الخاص بالمناضلين من أجل الإيمان الذين يشكلون اليوم في كل مكان مجموعات عديدة تهدد بالخطر كل الأنظمة الراهنة"(أركون، 1987، ص87).

من هنا يبرز الرهان المنهجي الأركوني على أنه يحمل طموحا ابستيميا مناهضا لكل إيديولوجيا تسعى إلى تطويق الفهم الصحيح للظاهرة الدينية ولمفهومية المقدس بشكل أساسي، هكذا يريد أن يرتقي بإرادة الفهم داخل العقل الإسلامي إلى محاورة النص المقدس محاورة علمية موضوعية تفاديا لكل تأويل مؤطر برؤية إيديولوجية تعكس إرادة الفهم الموجه الذي لا يسمح لغيره بطرح سؤال النقد والتجاوز.

وفي سياق تحليله العلمي نجد في المسار البحثي لدى أركون جرأة زائدة في توصيفه لمفهومية الوحي وطبيعته باعتبار الوحي علاقة مقدسة بين الله كمصدرية للنص وبين النبي صلى الله عليه وسلم كمتلقي وروح القدس كواسطة بين الموحي والموحى إليه، وهذه هي القراءة التي يقربها المسلم المعتقد بالرسالة المحمدية ولكن أركون يتجاوز هذا الفهم ويتحدث عن مفهوم جديد للوحي يتجاوز التعريف المتعارف عليه لدى أصحاب الديانات السماوية ليدخل في دائرة الوحي؛ البوذية، الكونفوشيوسية وغيرها من الديانات القديمة، أو فيما يقول: "وتحديدنا الخاص الذي نقدمه عن الوحي يمتاز بخصيصة فريدة هو أنه يستوعب بوذا وكونفوشيوس والحكماء الأفارقة وكل الأصوات الكبرى التي جسدت التجربة الجماعية لفئة بشرية ما... ولا يقتصر فقط على أديان الوحي التوحيدي"(أركون، 1990، ص84).

هكذا يفيدنا النص الأركوني أن مسألة المقدس لا ترتبط بالدين السماوي وتتجاوز كل التجارب المعروفة للتقديس والتي تتحدث بلغة هذا حلال وهذا حرام، وهذا ما يعتبره أركون ذاته نظرة كلاسيكية مؤدلجة يجب تجاوزها باسم الانفتاحية العلمية والتحليل الابستيمي الذي يجعل الدين مجرد رؤية ثقافية لا تملك الحقيقة باسم المقدس، بل تملك خصوصية معينة تعبر عنها إما باسم

الإسلام، أو اليهودية أو النصرانية أو البوذية أو غيرها من الديانات التي عرفها البشر، وعلى هذا الأساس صار المقدس عند أركون خاضع هو الآخر لتجربة البشر وحدود ثقافتهم، وليس مزية يتم الحديث باسمها على أنها أداة لفرض دين معين أو عقيدة معينة على دين أو عقيدة من العقائد الأخرى.

لهذا اقترح علينا أركون قراءة جديدة للنص الديني من أجل زحزحة السياج الدغمائي ونقل الفكر الإسلامي من الطابع التقديسي الأسطوري إلى تاريخية الفكر والنص الإسلامي، وذلك عن طريق تفكيك مرتكزات هذا الخطاب بالكشف عن التلاعبات سواء الدلالية أو التاريخية التي لحقت بالنصوص التأسيسية من القرآن، أو السنة النبوية، وبتحقيق هذه الزحزحة في العقل الإسلامي سيعود النص الديني إلى انفتاحه وخصوبته باقتراحه لقراءة جديدة باستعماله لمختلف المناهج العلمية في مجال العلوم الإنسانية، وبذلك يتم التأسيس لفهم جديد للنص القرآني يختلف عن التأويلات الكلاسيكية والتفاسير القديمة، والذي يقوم على آليات جديدة مستمدة من حقول معرفية مختلفة من أجل تحرير المقدس من إرادة الهيمنة إلى رهانات الانفتاحية التي تجعل النص ملكا للإنسان وليس لفئة أو طائفة، وهذا هو المعنى الحقيقي لتجاوز الإيديولوجيا والحديث باسم الابستيما التي تجعل الحقيقة منظورا إليها من زوايا مختلفة وليس من زاوية واحدة كما تريد الإيديولوجيا تكريسه.

4. 2 المقدس وثنائية المطلق والنسبي:

وهو يثير مسألة المقدس باعتبارها إشكالية مفاهيمية طرحها الوعي الإسلامي بشكل مأزوم وغير طبيعي يحاول أركون أن يضع هذه المسألة تحت رقابة منهجية صارمة هدفها إعطاء المفهوم حقه من التوصيف والضبط المحايد الذي يجعل المصطلح يأخذ حيزه الطبيعي رؤية ومنهجا، وعلى أساس هذا الاعتبار فقط نجده يميز بين مستويين من كلام الله؛ الأول مطلق والثاني نسبي؛ أما الأول فهو الكتاب السماوي الأعلى والنموذج الأصلي الذي يحتوي على كلية كلام الله المجهولة والمحاطة بالأسرار والتي يستحيل لأي بشر إدراكها لأنها تفوق قدرة العقل البشري، فكلام الله أوسع بكثير مما هو مقيد في الكتاب القرآن، فما أوحي إلى الأنبياء منذ البدء وصولا إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ليس إلا أجزاء متقطعة من الكلام الكلي الذي يربطه أركون باللوح المحفوظ، "وهو يعني الكتاب الكامل الذي يحتوي على كلية كلام الله والموجود فقط في السماوات"(أركون، 1996، ص82).

ومستوى ثان من كلام الله وهو الكلام الذي جاء به الرسل عن طريق الوحي، وهو جزء من النموذج الأصلي الأزلي الكلياني، والذي ارتبط نزوله بحوادث اجتماعية وسياسية في شبه الجزيرة العربية، والقرآن الكريم نفسه يؤكد على أن هناك نوعين من الكلام المقدس؛ الأول في صفته الأزلية السرمدية والثاني في ثوبه النسبي المعبر عن وضع ثقافي واجتماعي وسياسي معين أو كما يقول أركون: "القرآن نفسه يلح على وجود كلام إلهي أزلي لا نهائي محفوظ في أم الكتاب، وعلى وجود وحي منزل على الأرض

بصفته الجزء المتجلي والمرئي والممكن التعبير عنه لغويا"(أركون،2001، ص22)، وفي هذا الصدد نجد رؤية امتدادية لما قال به نصر حامد أبو زيد حيث لا يختلف في تصوره عن كلام الله المطلق والنسبي عن ما قال به أركون، وهو ما يؤكده هذا النص "المصدر الإلهي للنصوص الدينية لا يخرجها عن القوانين الثابتة لأنها تأنسنت منذ تجسدت في التاريخ واللغة وتوجهت بمنطوقها ومدلولها إلى البشر"(نصر حامد أبو زيد، 195، ص73)، وهذا الكلام يحيل إلى ما كان يصبو إليه أركون نفسه، إذ يهدف إلى زحزحة المفاهيم المغلقة في ثوبها اللاهوتي والسعي بها إلى انفتاح أنسني قائم على الحرية، باعتباره الفضاء الابستيمي الذي من شأنه أن يؤسس لعقل إسلامي قادر على الإبداع ومتحرر من كل أشكال التوجيه المسبقة والمتحجرة التي كرست لعقائد دوغمائية قاتلة.

بهذه الرؤية التنويرية التي بشر بها أركون يكون النص المقدس محل مساءلة نقدية كغيره من النصوص التاريخية التي هي نتيجة لاجتهادات البشر، ولكن إخضاع النص المقدس للنقدية ليس محاولة للتشكيك في قيمته أو مصدريته ولكن محاولة لجعله يساير الواقع العلمي والواقعي خاصة داخل جغرافيا العالم العربي والإسلامي الذي استحوذت عليه نمطية فكرية أرثوذكسية حنطته وجعلته يفرز نماذج تفكيرية جاهزة، فالعرب والمسلمين كما يقول أركون: "لم يخاطروا أبدا بدراسة نقدية للدين على طريقة ماركس وفيبر مثلا... ولم يقوموا بصراع ضد الكهنوت على طريقة فولتير"(أركون، 1996، 237)، وهنا إشارة واضحة إلى مشاريع الفكر الإصلاحي الذي استأنفه جيل من المصلحين منذ القرن التاسع عشر كمحاولة لتدنيس عصر الحداثة الإسلامية المأمولة التي رسمها الخط الإصلاحي لمختلف مدارسه.

4. 3 مآلات المقاربة الأركونية للنص المقدس:

من المتعارف عليه أن محمد أركون يصر وبشدة على منح المسألة الدينية مكانة مركزية في نسقه الفكري المعروف بالإسلاميات التطبيقية، فالمسألة الدينية التي يشكل المقدس أبرز صورها تمثل مدخلا أساسيا من المداخل الضرورية الباحثة عن أشكال المنسي واللامفكر فيه داخل جغرافيا العقل الإسلامي ككل، لذلك كانت محاولة أركون تتجه صوب الهواجس والحواجز المانعة لمرور الأنوار صوب ظلامية التفكير الدغمائي الذي شكل العقل الإسلامي منذ فترة طويلة من الزمن باسم فقهاء الظلام وحراس الدين وفق ثنائية ثابتة (حلال/ حرام) ولكن المنطق الأركوني أراد العقل الإسلامي وظيفة أخرى واتجاها مغايرا إذا أراد أن يتصالح مع ذاته ومع التاريخ ومع ما جاء به العلم المعاصر.

بهذا صنف الطرح الأركوني ضمن القراءات الحداثية المستفزة للإيديولوجيا كون المفكر تطرق وبجرأة زائدة لمسائل كانت تصنف ضمن اللامفكر فيه، وفي هذا الصدد يذكر محمد المزوغي مميزات الطرح الأركوني واصفا إياه بالمشروع الحداثي الجريء الذي ينبغي الانتباه إلى مضامينه الفكرية وأدواته

المنهجية إذ يقول: "الرجل أركون ألقى على عاتقه مهمة صعبة جدا لم يعهدها عند المستشرقين، ولم يعثر عليها عند الدارسين العرب المحدثين أعني مهمة قراءة التراث الإسلامي الظاهر والباطن منه قراءة علمية نقدية المشروع المعرفي الجديد الذي دشنه أركون هو مشروع فذ وفريد من نوعه فعلا"(المزوغي، 2007، ص57)، فالقراءة الأركونية للنص المقدس نراها نقلة نوعية في فضاء الفكر العربي الإسلامي المعاصر، لا تشكل الاستثناء طبعا ولكن تعد واحدة من القراءات الجديدة التي تهدف إلى بلوغ قراءة ابستيمية منطلقاتها خاضعة للنقد العلمي الصرف بهدف خلخلة البنية الإيديولوجية بمختلف تشكلاتها من منطلق أن هذه الأخيرة تشكل خطرا على تحرر العقل الإسلامي كأداة وكمضمون فكري على مختلف الأصعدة.

إن أركون من خلال دراسته للمقدس كان يبحث باستمرار على آفاق جديدة لتأويل هذا المقدس عن طريق الاستفادة من طرائق التفكيك والتأويل المنهجي الذي جاءت به المدارس الكبرى في إطار الفكر الغربي والتي يراها محمد أركون ضرورية أثناء قراءة المقدس وهو يصر على إعمالها ويدعونا إلى توظيفها باعتبارها الضامن الوحيد للفهم اللاإيديولوجي أو الفهم الموضوعي، والحقيقة أن تبني أركون للمناهج الغربية والتبشير بحتميتها عند محاورة النص المقدس لا يعني ارتماؤه في توظيفها توظيفا استنساخيا مباشرا، وبشكل آلي محض، وإنما محاولة الاستفادة منها وتوظيفها بشكل نقدي وعلمي، بدليل أن أركون يوجه سهام نقده نحو الفكر الغربي نفسه متهما إياه بالتقصير والانحياز نحو ضروب الإيديولوجيا، أو كما يذكر "عندما أذكر الأصولية فإنني أستهدف شطريها لا شطرا واحدا؛ أقصد الشطر الديني التقليدي المعروف، والشطر الحديث غير المعروف كثيرا، والذي كنت دعوته بالسياج الدغمائي الحديث المغلق للروح البشرية، وبالتالي فالنقد التفجيري أو التفكيكي ينبغي أن ينصب على كلتا الجهتين الإسلامية والغربية، فالغرب أيضا ينبغي أن يكنس أمام بيته فهو مدان أيضا في حالات عديدة"(أركون، 2011، ص237).

يتضح مع القراءة الأركونية المآل الفكري والمنهجي الذي يرمي إليه الطرح الأركوني فهو مشروع تغمره نشوة الطرح الابستيمي باعتباره الحل الوحيد لتضييق الخناق على كل الأساليب المؤدلجة التي أرادت للعقل الإسلامي أن يظل سجين تصورات ماضوية مغلقة.

5. خاتمة:

يتضح مع أركون وهو يشتغل على مفهوم المقدس في فضاء الثقافة العربية الإسلامية أنه يخاطب العقل الإسلامي مخاطبة علمية بأدوات ابستمولوجية يريد من خلالها إعطاء العقل الإسلامي اتجاها جديدا هدفه تأسيس خطاب جديد ورؤية معاصرة للإسلام غير تلك الرؤية الكلاسيكية المألوفة التي صنعها فقهاء الظلام ودعاة الأصولية المغلقة، وهذه الرؤية التجاوزية التي يزعم المفكر السير بها إلى آفاق جديدة ليست في الحقيقة إلا محاولة من جملة المحاولات التي دعا إليها الكثير من المفكرين العرب

المعاصرين، وبالتالي كل اشتغال على هذا النوع من المسائل يتطلب انفتاحا ابستيميا تعززه التكاملية المنهجية التي لا تقبل الإقصاء أو الانفراد بالحل والرؤية لأن العلمية تقتضي مواجهة المشكلات بفلسفة انفتاحية جديدة هدفها الأسمى هو التقعيد المنهجي العلمي والاستفادة حتما من كل الجهود التي توصلت إليها العلوم الإنسانية في هذا الصدد، كالمنهج الألسني والسوسيولوجي والتاريخي والأنثروبولوجي والبنيوي والجينيالوجي وغيرها من المناهج التي بإمكانها أن تسهم في تحليل وفهم المقدس فهما صحيحا بعيدا عن الرؤية الأحادية المشحونة بالرؤية الإيديولوجية، وبالتالي يمكن القول أن قراءة محمد أركون لفكرة المقدس تتجه إلى بناء فلسفة جديدة لا تختلف عن الفلسفة التي حاول العقل الغربي ممارستها على النص المقدس والذي استطاع إلى حد ما بناء رؤية تجاوزية لتلك الرؤية التي صنعتها أفكار القرون الوسطى.

ولكن السؤال الذي يجب أن يطرح في هذا الصدد هل المسار المنهجي الذي صنع التحول والانتقال المعرفي في ظل الثقافة الغربية والذي صنع فهما جديدا للدين ولمفهوم المقدس هو المسار نفسه الذي يصلح أن يؤسس لحداثة عربية إسلامية، وخطاب نقدي بديل للخطاب الكلاسيكي الذي عرفه الفكر الإسلامي؟ هذا هو السؤال المهم والأهم الذي يجب طرحه خاصة وأن محمد أركون فكر من هناك وفي إطار ثقافة معينة هي الثقافة الغربية القائمة على مفاهيم وتصورات مختلفة تماما عن المفاهيم والتصورات المتداولة في حقل الثقافة العربية الإسلامية.

وهذا ما يجعل سؤال المنهج وطبيعة الخطاب ومآلات الرؤية الأركونية محل تساؤلات نقدية ملحة بالرغم من أولوية الابستمولوجي على الإيديولوجي التي منحها المشروع الأركوني القراءة الجديدة للنص المقدس، وعلى هذا الأساس يبقى الرهان المنهجي البديل الذي بشر به أركون مرتبط بالشروط الموضوعية التي يجب أن تتوفر عند الاشتغال على المقدس داخل الثقافة الإسلامية التي تحتاج إلى مزيد من الانفتاح والإنعتاق من الآراء والتصورات النمطية التي سيجت الفهم الصحيح لهذا المفهوم المركزي في عقل الثقافة العربية الإسلامية، على أن نقول بأن محاولة محمد أركون قد اتسمت بكثير من الجرأة والحماسة التي لم تألفها الخطابات العربية المعاصرة بالنظر إلى نوع المسائل التي أثارها وتطرق إليها ضمن قضايا العقل الإسلامي.

6. قائمة المراجع:

1) أركون، محمد (2008)، *الإسلام والحداثة*، ترجمة هاشم صالح، سوريا، دار بدايات جبلة.
2) أركون، محمد (1996)، *أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ من فيصل التفرقة إلى فيصل المقال*، ترجمة هاشم صالح،(ط 2)، دار الساقي، لبنان.
3) أركون، محمد (2004)، *قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟* ، ترجمة هاشم صالح، (ط 3)، دار الطليعة، بيروت، لبنان.

4) أركون، محمد (1996)، *تاريخية الفكر الإسلامي*، (ط 2)، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، المركز، ث، ع، بيروت.
5) أركون، محمد (2001)، *من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني*، ترجمة هاشم صالح، (ط 1)، بيروت، دار الطليعة.
6) أركون، محمد (2001)، *الإسلام، أوربا، الغرب*، ترجمة هاشم صالح، (ط 2)، بيروت، دار الساقي.
7) أركون، محمد (1987)، *الفكر الإسلامي قراءة علمية*، ترجمة هاشم صالح، بيروت، لبنان، مركز الإنماء القومي.
8) أركون، محمد (1990)، *الفكر الإسلامي نقد واجتهاد*، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي.
9) أركون، محمد (1996)، *العلمنة والدين، الإسلام المسيحية والغرب*، ترجمة هاشم صالح، (ط 3)، دار الساقي، بيروت، لبنان.
10) أركون، محمد (2011)، *نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية*، ترجمة هاشم صالح، (ط 1)، دار الساقي، بيروت.
11) البدادي، عبد اللطيف، (2018، أفريل)، الإسلاميات التطبيقية وتحليل الخطاب الديني، *مجلة يتفكرون*، (العدد 12)، الرباط، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ص، ص 12، 13.
12) المزوغي، محمد (2007)، *العقل بين التاريخ والوحي، حول العدمية النظرية في إسلاميات محمد أركون*، منشورات الجمل، بيروت.
13) نصر حامد، أبو زيد (1995)، *التفكير في زمن التكفير، ضد الجهل والزيف والخرافة*، (ط2)، مكتبة مدبولي، القاهرة.